البنوية بين الأهمية و اللاكفاية

أ - فوزية دندوقة وأ - فطومة لحمادي
قسم اللغة العربية و آدابها
كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية
جامعة محمد خيضر بسكرة

ملخص:

تتناول هذه الدراسة المنهج البنوي بالتحليل والنقد، و تبين أهميته في تحليل النصوص،مع ذكر مواطن القصور فيه ،و التي يمكن أن تصل المقاربات البنوية بدونها (بدون مواطن القصور) إلى نتائج أفضل، من حيث هو المنهج الأدبي الذي يسلط الضوء على النص بجميع مستوياته اللغوية ، فلا يهمل منها مستوى ، إنه يبحث عن الخصائص التي جعلت منه نصا أدبيا ، و لذلك من الأهمية ما يجعلنا نقر بقيمته في الدراسات الأدبية، دون أن نغفل الإشارة إلى مآخذه المتمثلة في تجاوز علاقات الأدب المتشابكة بالظواهر الثقافية و الاجتماعية المختلفة و تجاهل الوحدة النفسية للإنسان الاجتماعي .

مفهوم البنيوية:

تشتق كلمة بنية في اللغات الأوربية من الأصل اللاتيني (Stuere) " الذي يعني البناء أو الطريقة التي يقام بها مبنى ما"[1]؛ أي أنه يعني الهيئة أو الكيفية التي يقام عليها الشيء ، و هذا ليس بالبعيد عن دلالة الكلمة في لغتنا العربية " فهي تعني الكيفية التي يشيد على نحوها هذا البناء أو ذاك"[2] .

و يعرفها لالاند"Lalland "بقوله : " بمعنى خاص وجديد نستعمل البنية من أجل تعيين كل مكون من ظواهر متضامنة ، بحيث يكون كل عنصر فيها متعلقا بالعناصر الأخرى ، و لا يستطيع أن يكون ذا دلالة أخرى إلا في نطاق هذا الكل "[3]. و هو تعريف يؤكد أهمية العلاقات في البنوية ، حيث إنها لا تؤمن بالأشياء بل بالعلاقات الرابطة بينها .

و تتألف البنية من ميزات ثلاث ، هي : الجملة و التحويلات و الضبط الذاتي[4]، و ميزة الجملة تدل على أن البنية تتكون من عناصر تتحدد قيمتها من خلال علاقة بعضها ببعض – كما سبق أن أشرنا – أما ميزة التحولات فتعني أن التغيرات التي تطرأ على بنية ما تؤدي بالضرورة إلى تغيرات جوهرية في الهيكل العام ، في حين تعني ميزة الضبط الذاتي اكتفاء البنية بذاتها و عدم حاجتها لمؤثرات خارجية ، و هي فكرة تحيلنا دون شك إلى صميم البنوية التي لا تبالي بغير النص ، فالظروف و المؤثرات الخارجية و حياة المؤلف أمور تهملها البنوية الأدبية، محاولة بذلك الكشف عن أدبية الأدب ، لأن الناقد البنوي يوجه اهتمامه في المقام الأول إلى تحديد الخصائص التي تجعل الأدب أدبا ، فيبحث في القصة أو الرواية أو القصيدة عن العناصر التي جعلت منها نصوصا أدبية[5].

وقد شب جدل حول مفهوم البنية باعتبارها تصورا ذهنيا مجردا وليس مجموعة من العلاقات الحسية في هياكل مادية يمكن أن يطولها الإدراك المباشر.إلا أنها لا تتحدد استقرائيا كما يقول"بودون""BOUDOUN"؛أي عن طريق المقارنة والملاحظة،وذلك لأنها بناء رياضي.ومعنى هذا أنها ذات طبيعة ذهنية عقلية رياضية،لذلك يجب النظر إليها بالمعنى الرياضي؛أي باعتبارها مجموعة من العناصر المجردة،تقوم بينها علاقات متبادلة وبتعبير آخر،البنية لا تخص المحتوى الملموس للموضوع العقلي،بل تخص لغة العلم،لذلك فإن الميزة الأساسية لهذه البنية هي الشكلية[6].

ونجد من الناحية التاريخية أن كلمة"البنية"انبثقت من كلمة مماثلة لها هي كلمة"الشكل"،سواء في علم النفس"الجشطالت"،أو في النقد الأدبي عند "الشكلانيين الروس" لذا وجب تعيين الفارق المنهجي بين البنية والشكل،وعلاقة ذلك بطبيعة المنهج البنوي،هل هو منهج شكلي أو ليس كذلك؟

يقول ليفي شتراوس:"على عكس الشكلانيين،البنوية ترفض أن تعارض الملموس بالمجرد،أو أن تعترف بأسبقية الأول على الثاني،فالشكل يتحدد بالمادة المضادة له،في حين أن البنية لا تتمتع بمحتوى ذلك أنها هي المحتوى ذاته"[7] ، فالبنية لا محتوى لها خارجا عنها إنها المحتوى–على حد تعبير البنويين–ولكن ليس أي محتوى،إنما المحتوى الموجود داخل تنظيم منطقي؛أي التنظيم الشكلي أو الصوري.إذن للبنية طبيعة شكلية.

الأصول الفلسفية للبنوية:

لقد كانت البنوية حركة علمية واسعة شملت العديد من العلوم والمجالات المعرفية،وطرحت منظورات جديدة لمختلف القضايا التي كانت الفلسفات السائدة في ذلك الوقت تعمل على تثبيتها،كمسائل المعنى،والحقيقة في الظواهرية والتأويلية،ومسائل التاريخ والإيديولوجيا في الماركسية،ومسائل الذات والالتزام في الوجودية،ومسائل العلم وتاريخ العلوم في الإبستيمولوجيا.فالبنيوية استندت إلى جدار فلسفي متين فكان الغطاء النظري لها هو علم اللغة(النموذج اللغوي) الذي يمثل المنبع الحقيقي لمجموعة من المصطلحات التي استخدمها البنويون،وفي مقدمة هذه المصطلحات"البنية".

يقول فؤاد زكريا كان للبنوية "جذور فلسفية أقدم كثيرا من العصر الذي ظهرت فيه،وأهم هذه الجذور–في اعتقادي–هو فلسفة "كانط"،فالبنائية مثل فلسفة كانط تبحث عن الأساس الشامل اللازماني،الذي ترتكز عليه مظاهر التجربة،وتؤكد وجود نسق أساس ترتكز عليه كل المظاهر الخارجية للتاريخ،وهذا النسق سابق على الأنظمة البشرية،بحيث تستند إليه تلك الأنظمة زمانيا ومكانيا؛أي أن هذا النسق قبلي بمعنى مشابه لما نجده عند كانط(...) ولقد ظهر لدى البنائيين على اختلاف تخصصاتهم ميل واضح إلى فكرة النسق الشامل،ووضع أطر أو قوالب أساسية تندرج ضمنها الكثرة الموجودة في الواقع،بل إن هذه الأطر والقوالب لها عندهم طبيعة عقلية(...) إذ تؤكد أهمية العلاقات الداخلية والنسق الكامن في كل معرفة علمية،وتسعى إلى تجاوز المظهر الذي تبدو عليه المعرفة من أجل النفاذ إلى تركيبها الباطن"[8]

فقد هيمن التشظي والانقسام على المعارف في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين فذهب فريق من المفكرين إلى أن مهمة الفلسفة تنحصر في لعبة تحليل اللغة،وآمن آخرون بجدوى العبث،ورد البعض الواقع الموضوعي إلى ذرية منطقية...الخ وفي كل هذا كانت العلوم تزداد انقساما وتجزئة،كانت يدها اليمنى تجهل ما في يدها اليسرى،الفلسفة غريبة عن الفيزياء،وعلم النفس غريب عن اللغة،وفي منتصف القرن العشرين فقط أصبحت الرغبة قوية وجامحة لتلاقي هذه العلوم والنظرة إليها نظرة كلية تسمح بالعثور على التماسك فيها،ولقد كانت البنوية استجابة لهذه الرغبة[9].

فكانت نهضة البنوية من خلال تطبيق النموذج اللغوي على المادة قيد الدرس،وبهذا تمكنت اللغة أن تحتل موقعها الذي يليق بها؛لأن الدراسات الفيلولوجية والمنطقية قبل دي سوسير كانت تنظر إلى اللغة كأداة لتسمية الأشياء أو وسيلة تعبيرية فردية،وقد كبلت هذه النظرة اللغة وأفقرتها إلى مدى بعيد لكن سوسير استطاع أن يكتشف أنها نظام شكلي لا شعوري يعتمد على الفروق وليس على القيم الإيجابية الثابتة، ودعا إلى دراسة اللغة في ذاتها ولذاتها.وبذلك خلصها من وصاية العلوم الأخرى التي كانت تهيمن عليها.فقد رسم سوسير خطوطا للباحثين في اللغة بحيث بين أن الأصل في الدراسات اللغوية دراسة اللغة من الداخل وليس سردا تاريخيا لها.

وهناك مدارس أخرى أسهمت إلى درجة كبيرة في تشكيل الفكر البنوي؛ من أهمها مدرسة الشكلانيين الروس التي ظهرت في روسيا في العشرينات من القرن الماضي، و قد كانت هذه المدرسة تقاوم النزوع الإيديولوجي الذي صاحب وأعقب الثورة الاشتراكية لذلك ركزت مفاهيمها على دراسة الشكل الأدبي ودلالاته،وكانت تحليلاتها لمفهوم الشكل قريبة جدا من مفهوم البنية[10].

وفي هذا الصدد يقول ليفي شتراوس:"إنني أؤكد على أن البنيوية الحديثة ومن ضمنها اللسانيات البنيوية ما هي إلا امتداد للشكلانيين الروس"[11] إلا أنها تختلف عنها في الكثير من المفاهيم وبخاصة مفهوم الشكل والمحتوى.

والسؤال الذي يطرح نفسه بقوة في هذا المقام هل البنوية منهج أم مذهب فلسفي؟كما يذهب إليه نقاد البنوية .

يجيب ليفي شتراوس بقوله:"إن البنوية تريد أن تكون منهجا علميا دقيقا يماثل المناهج المتبعة في العلوم الدقيقة،يدرس العلاقات القائمة بين عناصر أجزاء كل بنية،وذلك

بتحليل هذه الأخيرة والكشف عن ارتباطاتها الموضوعية،ثم إعادة تركيبها في منظومة كلية جديدة أسمى من بنياتها الأولى،تتيح لنا تبين بنيتها الخفية،فالمنهج البنيوي في اعتماده على المناهج الطبيعية إنما ركز أساسا على نظرية المجموعات تلك النظرية التي تسمح بدراسة العلاقات بين أجزاء وعناصر المجموعة وتحليلها،ثم إعادة تركيبها من أجل الكشف عن البنية الخفية للموضوع"[12] .

ومن خلال قوله هذا نستخلص أن أهم ما يميز البنيوية أنها تهتم بتقعيد الظواهر وتحليل مستوياتها المتعددة في محاولة للقبض على العلاقات التي تتحكم بها،وهذا ما يجعل من البنوية منهجا لا فلسفة؛لأن العلم الحديث ومن القرن السابع عشر لم يتمكن من تحقيق إنجازاته الضخمة إلا بفضل تطبيق النموذج الرياضي على الظواهر الطبيعية،وأمكننا أن نحكم بأن هذا العلم منذ بدايته(بنويا) لأنه قصد الوصول إلى البناء الكامن وراء الظواهر الطبيعية وعبر عنه بلغة رياضية،وقد كان هدف البنوية يتمثل في بلوغ الدقة العلمية والصرامة والموضوعية في مجال الدراسات الإنسانية أسوة بالعلوم الوضعية[13].

إذن غيرت البنوية مجرى الدراسات الإنسانية فأصبحت تطبق في اللسانيات كما في علم النفس، أو علم الاجتماع،أو الأنثروبولوجيا وغيرها من العلوم.وهنا يحضرنا سؤال هام هو:هل البنيوية واحدة أم بنيويات عدة؟

نقول البنوية ليست منهجا مطبقا بطريقة واحدة،فما يقوم به ليفي شتراوس يختلف عن ميشال فوكو(Michel Foucault) ،وبارت(Roland Barthes)،ولوسيان غولدمان(Lucien Goldman)،وغيرهم ولكن هناك قاسما مشتركا بينهم ، كأولوية البنوي على التاريخي(التزامني على التعاقبي)بمفهوم دي سوسير،وأسبقية اللغة على الواقع،وأهمية تأثير المنهج في النظرية والشكل والمحتوى،كما أنه ليست هناك نظرية واحدة،ولكن مواقف مشتركة كالموقف من الذات ومن اللغة ومن التاريخ.

فكان سعي الأنثروبولوجي شتراوس للبحث عن الوحدة والثبات وسط تغير الظواهر وتشابكها،ففي البنى الأولية للقرابة،بين أن البنية هي "ذلك الكيان المبثوث في كل مكان،ومهمة الأنثروبولوجي تتمثل في الكشف عنها وإظهارها"[14].إذن فهو مؤمن بمفهوم البنية التي يراها رمزية لا شعورية.فكان بنيويا أنثروبولوجيا.

وفي سنة1966 ظهر كتاب ميشال فوكو "الكلمات والأشياء"" les mots et les choses " الذي يعد صلب إنتاجه،بل إنه صلب الإنتاج البنيوي إلى جانب كتابي ليفي

شتراوس"الفكر البدائي"و"الأنثروبولوجيا البنيوية" . يقول فوكو عن النسق:"بكلمة نسق فإننا نعني مجموعة من العلاقات التي تحافظ على توازنها وتتحول بشكل مستقل عن الأشياء التي تجعلها تترابط مع بعض"[15].

فإلى جانب كل من شتراوس و فوكو هناك الناقد الفرنسي رولان بارت الذي أراد من خلال كتابه"الكتابة درجة الصفر""le degré zéro de l’écriture" إعادة بناء منظومته بالاعتماد على الأعمال التي يرى أنها تشكل قطيعة مع الأدب الكلاسيكي،بمعنى أنه أراد أن ينطلق من أعمال حديثة نوعا ما وينتقد من خلالها الكتابات الماضية وهذا المنهج لا يمكن أن يكون إلا نقديا.فاللغة عنده أساس العمل الأدبي،وعنصر نجاح كل إبداع.

وفي ميدان سوسيولوجيا الأدب نجد لوسيان غولدمان من أكبر ممثلي هذا الاتجاه وأهم كتبه "الإله الخفي""le dieu caché".وفي هذا التنوع الفكري تأكيد على أن البنيوية أنواع حسب "روجيه كريمون"" Roger Gremont" فهناك البنيوية المحدثة لدى "ميشيل فوكو"،والبنيوية الثمينة لدى "رولان بارت"،والبنيوية الريفية لدى "ميشيل سيراس""M.Serrés"،والبنيوية الوصفية الجديدة لدى"ألتوسير""Altossir"،والبنيوية القلقة لدى"جاك دريدا""J.Derrida"[16].

<u>المنهج البنوي في مقاربة موضوعه :</u>

إن المنهج البنوي منهج يستبعد الذات و الشعور في تحليل النصوص ، و قد " أثبت قدرته على كشف ما لم يكن معروفا من خصائص الشكل و الظاهر ، و استطاع أن يصل إلى العام و المشترك ، و إلى ما هو علمي ، و إلى ما هو منطق "[17] ، فكل تركيزه على النص و لا شيء آخر غير النص ، بعد أن كان الاهتمام – فيما سبق – بالمبدع ، و محاولة خلق تصور يتعلق بسيرته من خلال إبداعه.

و أول خطوة يخطوها المنهج البنوي في تعامله مع النصوص شعرا كانت أو نثرا هي تحليلها إلى البنى التي تكونها ، و دراستها بالتفصيل على النحو الآتي[18] :

- تحديد أبنية الدلالة الأولية .
- تقسيم الوحدات الكبيرة إلى أبنيتها الدلالية الصغرى
- تحديد مستويات و محاور المقال .
- الوصول إلى النماذج التي ينتظم طبقا لها .

و بالتالي فإن التحليل البنوي يدرس علاقة تلك البنى بعضها ببعض ، و علاقتها بالنظام اللغوي العام ، " فحينما ننتقل إلى مقاربة نص أدبي ما فإن همنا الأول و الأساسي هو البنى و الوحدات اللغوية في علاقاتها بعضها ببعض من ناحية ، و في علاقتها بالنظام الكلي الذي يفرضه النوع من ناحية أخرى "[19]، لهذا فإن التحليل البنوي لا يتوقف عند حدي الوصف و الرصد لخصائص النص اللغوي ، و إنما هو تحليل نقدي يسعى إلى اكتشاف البنى الداخلية اللاشعورية للظاهرة[20i].

شهدت الفلسفة الغربية . و على مدى ثلاثة قرون . ابتداء من منتصف القرن السابع عشر الميلادي، جدلا صاخبا فيما يخص مشكلة الحقيقة أو مصدر المعرفة الإنسانية انقسم الفلاسفة بخصوص هذه القضية إلى فريقين، فريق يتزعمه هوبز (T .HOBBES) وجون لوك (J.LOCKE) وهيغل (F.HEGEL) و نيتشه (F.NIETZSCHE)، و يرى أن مصدر الحقيقة، يكمن خارج الأشياء ، وفريق ثان يتزعمه ديكارت (R.DESCARTS) وبراكلي (G.BERKELEY) وكانط (E.KANT) ، و يذهب إلى نقيض ذلك ، فيرى أن مصدر الحقيقة يكمن داخل الأشياء.

و لعل البنويين متأثرون بهذا التوجه الفلسفي الأخير الذي يُركِّز فيه على الشيء لا على خارجه ، و يبدو واضحا أن التركيز على جانب معين من جوانب العمل الأدبي سيعطي ما أوليناها الأهمية قدرا أوسع ، مما يؤدي بالضرورة إلى الإلمام بهذا الجانب من جميع نواحيه ، فإن كانت البنوية تلغي الباطن على حساب الظاهر، فلأن نقادها ابتغوا توجيه جميع أدواتهم الإجرائية على الجوانب الشكلية من النصوص الأدبية ، لمعرفة خصائصها ، و معرفة شكلها أيضا ؛ لأن الشكل وعاء الجوهر ، و لا قيمة لهذا الأخير إن كان الوعاء مشوها أو مكسورا ، فبقدر ما للبنية العميقة التي تعتبر الأساس في تأليف النصوص من أهمية ، بقدر ما للبنية السطحية من أهمية ، و التي على أساسها نشأت كثير من النظريات اللسانية ، كالنظرية التوليدية التحويلية, فتشومسكي عند وضعه لأسس هذه النظرية كان مدركا – كما أدرك كثيرون مثله أن لقطب الخارج قدرة كبيرة في تغيير قطب الداخل ، و أن سيطرته واضحة في زيادة ما لم يكن موجودا ، و حذف ما كان كذلك.

من كل ما سبق يتضح جليا أن دراسة نص ما دراسة بنوية إنما هي السبيل الأفضل لمعرفة خصائص هذه البنية ، انطلاقا من تحليل مستوياتها اللغوية المختلفة (صوتية ، صرفية ، نحوية)، و هي الطريق الأحسن لضمان معرفة كل ما يتعلق بالناحية الشكلية لهذه البنية ، و من هنا يحق لنا أن نقول إن المنهج البنوي على جانب كبير من الأهمية في الدراسات الأدبية و تتجلى أهميته في أن النقد البنوي يركز كل ما يملك من أدوات إجرائية على جانب واحد ، و وجه وحيد من وجوه البنية المدروسة ، فيوظفها جميعا دون شتات ليحصل في النهاية على دراسة شكلية كاملة .

<u>المنهج البنوي في ميزان النقد :</u>

سبق أن أشرنا إلى إيمان البنويين بسلطة القطب الداخل التي تأثروا فيها بالفكر الفلسفي المنادي بذلك، فنصبوا الشكل على رأس المضمون . و فضلا عن ذلك فقد اقتفى البنيويون مذهب الفلاسفة المثاليين ، الذين تبنوا موقف (نيتشه) عندما أقر بموت الإله . فما كان لهم إلا أن أعلنوا عن موت المؤلف و الإنسان، و غياب سلطة المبدع ، التي رأوا أن نهايتها تبدأ بانتهائه من العمل الإبداعي، فمقابل رفض الفلسفة المثالية لوجود إله يقيد الكائنات البشرية ، رفض المنهج البنوي السلطة البشرية على النصوص الأدبية ، ليجعل البنية في هذا الغمار الإله الوحيد ، محددا انطلاقا من ذلك خصائص هذا المنهج (استبعاد المعنى ، وموت المؤلف و إهمال القارئ) . و فضلا عن تأثرهم بالفلسفة ، فإن للبنوية أصولا لسانية تبدأ مع كتاب دي سوسير (محاضرات في الألسنية العامة) الذي نشره اثنان من تلاميذه فقد مثل هذا الكتاب حجر الزاوية و البذرة الأولى للفكر البنوي بما تضمنه من مبادئ و أصول قامت عليها المدرسة السوسيرية ، و هي ثنائية النظم اللغوية ، التي ينظر فيها سوسير إلى البنية كمجموعة من الثنائيات المتقابلة للكشف عن علاقاتها ، و تحديد طبيعتها، حيث اعتمدت على الرؤية الثنائية المزدوجة للظواهر اللغوية[21] ، و يبدو الأثر اللساني على المنهج البنوي واضحا في عزله البنية ، و مقاربتها مقاربة داخلية بعيدة عن مختلف السياقات الخارجية التي يمكن أن يكون لها دور في خلقها ،اقتفاء لخطى اللسانيات التي عزلت اللغة عن باقي العلوم الأخرى ، و اعتبارها علما مستقلا قائما بذاته ، إضافة إلى فكرة الثنائيات التي استند عليها الناقد البنوي في رسم طريقه ، و وضع مبادئه ، فلأن العلاقة بين الدال و المدلول علاقة اعتباطية ، اعتبر المنهج البنوي النص دالا مدلوله ما يحمله من مضامين ، و تسليما بهذا المبدأ (مبدأ الاعتباطية)لم يعد الدال الواحد في

الدراسات البنوية محيلا على مدلول واحد ، بل أصبح بؤرة تلتف حولها مجموعة من المدلولات اللانهائية، و هو جوهر ما اعتمدته البنيوية في دراستها لمختلف البنيات النصية

وقد شاعت في منتصف الستينات وما بعدها بضعة شكوك حول الكفاية المنهجية للبنوية بشتى حقولها الأنثروبولوجية والنفسية والأدبية والمعرفية،ولكن سرعان ما تحولت هذه الشكوك إلى تيار نقدي يحاول نقد الوصفية البنوية المجردة،ونموذجها اللغوي الذي عممته على المعارف والعلوم الإنسانية ،وقد كان لأحداث 1968 في فرنسا الأثر الحاسم في وقف المد البنوي،وظهور المنهج السيميولوجي.

ومحاولة الخروج من الوصفية بدأت من أقطاب البنوية أنفسهم،فها هو "بارت" يؤكد أن "صرح اللسانيات أصبح يتفكك اليوم من شدة التشبع أو من شدة الجوع،وهذا التقويض للسانيات هو ما أدعوه من جهتي سيميولوجيا"[22].

إذن تعد لحظة تحول بارت من الوصفية إلى البحث عن صيغة مناسبة للاقتراب من الخطابات لحظة تاريخية في الانتقال من البنوية إلى السيميولوجيا التي تهدف إلى تطوير طرائق منفتحة للقراءة على نقيض البنوية التي تهدف إلى قراءات منغلقة تريد تأصيل نماذج بنائية محددة في الخطابات مكونة على غرار النموذج اللغوي.

و قد يقول البعض إن العصر عصر التخصص ،و قد اختصت البنوية بما رسمته لنفسها مسارا خاصا بها ، لكن اختصاصها بالشكل ،و استبعاد المعنى الذي اعتبره روادها موضوع دراسة علماء النفس،ورأوا أنه وحدات عقلية أشبه بالألغاز،تخرج تماما عن نطاق علم معقول،وأنه قد يقتضي معرفة كاملة من جانب المتكلم بالعالم الذي يحيط به،أدى إلى النتيجة المنطقية المتمثلة في التخلي عن المعنى والاهتمام بالنماذج الصورية فقط؛أي الصياغة الشكلية المجردة عن أي سياق أو تأويل.وعلى هذا فهم يعاملون الجمل المفرغة من المعنى والجمل الكاذبة على حد سواء مع الجمل الصحيحة معنى ومبنى[23].

إذا فعيب البنوية يكمن في أنها تهمل الدلالة إهمالا تاما و كليا ، فتقصي المعنى و كأنه غير موجود ، لا بقدر ما يحقق لدراسة الشكل النجاح و التميز فقط ، بل بجعل النسق أحادي الوجه ؛ الشكل و ليس غير الشكل.

ومن الإشكالات التي عانت منها البنوية مسألة (موت المؤلف) أو (موت الإنسان) الذي يقول عنه فوكو:"إن المعرفة التي ظهرت في القرن التاسع عشر،بظهور الإنسان هي

نفسها التي ستنقض عليه وتشنقه،فهو كلما تفرق بين العلوم المختلفة فقد من قيمته،ومن هويته ولكنه لا يملك إلا أن يتفرق بين فروع المعرفة المختلفة(كما هو الشأن في الأنثروبولوجيا أو التحليل النفسي أو الاقتصاد) وبالتالي فالموت والفناء هما مصيره المحتوم،فالإنسان المعاصر على وشك الانمحاء والضمور،على وشك الموت.إن لم يكن قد مات فعلا،ذلك أن المجتمع المعاصر قوض دعائم الإنسان بمتطلباته القاسية التي جعلته خاضعا لها،إنه يموت مرات عديدة في اليوم الواحد إلى جانب هذه المتطلبات هناك مؤسسة قوية ظهرت في المجتمع المعاصر وهي اللغة،فإذا كانت اللغة تلح الآن في الظهور كوحدة تعذر علينا فهم كينونتها كلما لاحت لنا في الأفق،أليس في كل هذا دلائل تشير إلى أن النظام بأكمله سيتقوض وأن الإنسان في طريقه إلى الفناء متى تجمعت اللغة"[24].

فقد استبدلت البنوية مفهوم الإنسان بنسق منتظم من البنى الثابتة الموجودة سلفا،وجعلته الناطق باسمها،إن هذه البنى اخترقته وأسكتت صوت الإرادة فيه،والواقع أنها انتصرت للعلم على حساب الإنسان والتاريخ والفلسفة ، لاعتقادها أنه الطريق الأمثل للوصول إلى الصرامة العلمية وخاصة في مجال العلوم الإنسانية، فبعد أن حظي مفهوم الإنسان خلال تاريخ طويل بمركز الصدارة ، باعتباره موضوع المعرفة الأساسي ، و الإشكالية الرئيسة التي تتمحور حولها المفاهيم الأخرى و ترفدها جاءت البنوية لا لتجعل منه موضوعا من بين المواضيع الأخرى ، و إنما لتزيحه من مجال المعرفة أساسا ، و تعلن وفاته[25]. " صحيح أن الإنسان يبدو في بعض الأحيان علامة باهتة، وسط الصراعات المحيطة به ، لكنه ما يلبث أن يستعيد حيويته و نشاطه ، فالعقل أو الفكر يمكنه التعثر لكنه لا يندثر إلا باندثار الحياة ذاتها ، و ما دامت الحياة موجودة ، فإن قدرة الإنسان على التعبير و الإبداع ستبقى ، لأن الإنسان هو ذلك الكائن الميتافيزيقي المبدع الذي يعي ذاته، و العالم الموضوعي الخارجي ، و الذي يعي وجوده و يعطيه معنى و دلالة و قيمة ، و بالإضافة إلى أبعاده الزمانية المكانية المعروفة ، فهو قادر على تخطي حدود الأجيال الاجتماعية و الظروف البيئية و محدودية الثقافة و الحضارة و التاريخ قصد الوصول إلى بعد آخر و هو البعد الميتافيزيقي."[26]

إن لا كفاية البنوية تتضح أيضا عندما نقارنها بالمناهج النقدية الأخرى ، فالسيمياء مثلا علم يبحث في توظيف العلامة ، و لا جدال في أن العلامة ، ودراستها جانب شكلي ، لكن هذا العلم لا ينظر للعلامة بكونها مجرد شكل بل يحاول من خلالها الوصول إلى

المعنى ، و كيف كانت خادما له ، فهي علم يدرس العلامات في كنف الحياة الاجتماعية ، لأنه يراها بديلا عن كل المعاني التي تحيط بنا ، و على هذا الأساس يمكننا دراسة الإنسان دراسة متكاملة ، من خلال العلامات المبتدعة من قبله، وذلك بهدف إدراك واقعه[27].

أما الأسلوبية فتبحث بدراستها للتفرد في كيفية خدمة الشكل للمعنى ، لأنها " بحث عما يتميز به الكلام الفني عن بقية مستويات الخطاب .أولا ,وعن سائر أصناف الفنون الإنسانية ثانيا "[28] .

و ليست البنيوية التكوينية أو التوليدية التي جاءت على يد " لوسيان غولدمان" إلا ردة فعل اتخذها نقاد البنوية عندما أدركوا الخطر الذي يواجه مصير المنهج البنوي عندما أعلن موت المؤلف ، و نادى بإهمال الدلالة، فقد حاول غولدمان أن يقف موقفا وسطا، بالجمع بين النزعتين البنيوية و الاجتماعية ،ليشكل في النهاية منهجا يولي البنية أهمية كبيرة دون أن يهمل سياقها الاجتماعي ، مخلفا وراءه البنوية كـَ«نزعة شكلانية خالصة تغتدي هشة، فجة، بسقوطها في الميكانيكية الشكلية التي تجرد الأدب من وظيفته الاجتماعية، و فعاليته الإنسانية، و تأثيره الجمالي و تجعل منه مجرد صدى فارغ لعمل اللغة ، من حيث هي كائن خارج إطار التاريخ، و لا يقال إلا نحو ذلك في المنهج الاجتماعي التقليدي الذي كان يصر على عد المضمون، و هو أساس الإبداع و هو العلة في إيجاده، و هو الذريعة في كتابته، إذ لا شيء أخطر رأيا من هذا الاتجاه الذي ينفي عن الأدب جماليته، و يجنح به نحو الإيديولوجية المقيتة»[29]

وفي الأخير نقول إن الموقف الحواري مع المنهج البنوي يمثل حالة عدم الانبهار به،وعدم اعتباره الخلاص،بل هو مساهمة جادة يمكن التواصل معها؛لأنه كان بحق حلقة من حلقات المناهج الحديثة التي نهضت بالعديد من العلوم الإنسانية.

الهوامش:

1- صلاح فضل ، نظرية البنائية في النقد الأدبي ، دار الشروق ، مصر ، ط1 ،1998 ص 175

2-عبد الوهاب جعفر ، البنيوية بين العلم و الفلسفة عند ميشيل فوكو ، ص 02

3- نقلا عن : عمر مهيبل ، ، ديوان المطبوعات الجامعية،الجزائر، 1999 ،ص 16

4 - م.ن/ص.ن

5 - عبد العزيز حمودة ، المرايا المحدبة ، من البنوية إلى التفكيك ، ص 181

6 - ينظر: الزواوي بغورة، البنيوية منهج أم محتوى،مجلة عالم الفكر ،المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب،الكويت،يونيو 2002 ،العدد30، ،ص49

7 - نقلا عن :م ن/ص40

8 - فؤاد زكريا،الجذور الفلسفية للبنائية،حوليات كلية الآداب،الكويت،،1980، ص08

9-ينظر عبد الله إبراهيم،سعيد الغانمي،عواد علي،معرفة الآخر"مدخل إلى المناهج النقدية الحديثة"،المركز الثقافي العربي،المغرب،ط1996،2، ص59

10- ينظر صلاح فضل،مناهج النقد المعاصر،إفريقيا الشرق،الدار البيضاء،المغرب،2002، ص70

11- نقلا عن : الزواوي بغورة،البنيوية منهج أم محتوى،ص45

12-كلود ليفي شتراوس،الأنثروبولوجيا البنيوية،ترجمة مصطفى صالح،دمشق،منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي،1977 ، ص49

13-ينظر عمر مهيبل ،البنيوية في الفكر الفلسفي المعاصر، ص5

14- نقلا عن م.ن/ص93

15- نقلا عن : م.ن ،ص ن

16Roger Cremont, les matinéés structuralistes, ed Rober Laffont,1969,p24-32.

17- حكمت صباغ الخطيب ، في معرفة النص ، ص 37

18- صلاح فضل ، نظرية البنائية في النقد الأدبي ، ص 204

19- عبد العزيز حمودة ، المرايا المحدبة ، ص 203

20- عبد الله الغذامي ، الخطيئة و التكفير ، ص 40

21- سامي الرباع ، البنائية ...و التحليل الأدبي ، مجلة الفيصل ، ص 25
22- رولان بارت،درس السيميولوجيا،ترجمة عبد السلام بنعبد العالي،دار توبقال،الدار البيضاء،المغرب،ط3/1993،ص33
23- ينظر عبد الله ابراهيم وآخرون،المرجع السابق،ص54
24 - نقلا عن : عمر مهيبل ، البنيوية في الفكر الفلسفي المعاصر ، 88 ،89
25- م.ن/ص282
26- م.ن/ص285
27- ينظر : فردنان دي سوسير ، محاضرات في اللسانيات العامة ، 193 .
28- محمد عزام ، الأسلوبية منهجا نقديا ،دار الآفاق ، بيروت ، ط1 ، 1989 ، ص 11
29- عبد المالك مرتاض: نظرية القراءة، تأسيس للنظرية العامة للقراءة الأدبية، دار الغرب للنشر التوزيع، وهران، ط 1، 2003، ص 112، 113.